الـوثـائـقـيـة

قراءة في أفلام الجزيرة الوثائقية عن الثورات العربية

فيلم "صناعة الكذب"

تعرية لذهنية الخطاب الإعلامي المُضلِّل لنظام حسني مبارك

لماذا يتحوّل الفنّان والرياضي ورجل الدين إلى بوقٍ للنظام المُستبِد؟

عدنان حسين أحمد – لندن

Al Jazeera Documentary
http://aljazeera.net/doc

قليلة هي الأفلام الوثائقية التي خصّصت مساحة واسعة للإعلام الرسمي المصري ورصدته بروح مهنية عالية باستثناء فلم "صناعة الكذب" للمخرج شريف سعيد الذي قدّم بطريقة مرآوية خطاب الإعلام الرسمي المصري على حقيقته من دون رتوش. وكمن يريد أن يزّج متلّقيه في قلب الحدث من دون مقدمة تمهيدية مطوّلة تنفتح اللقطة التأسيسية الطويلة نسبياً على مدٍّ واسع من المتظاهرين في ميدان التحرير في ظهيرة الثامن والعشرين من يناير ٢٠١١ مستعيناً بـ "الفويس أوفر" الذي يختصر اللافتات المرفوعة بشعار واضح وصريح مفاده: "الشعب يريد إسقاط النظام" غير أن اهتمام المخرج وكل العاملين معه من فريق التصوير والإعداد والإنتاج كان مُنصبّاً على أداء أجهزة الإعلام الرسمية في مصر وما أنجز خلال "١٨" يوماً من مواد إعلامية على أيدي خبراء ومختصين سخّروا قابلياتهم الإعلامية لصناعة الكذب وترويجه بطريقة فجّة أوشكت أن تُجهض أحلام الجماهير.

يعتمد المخرج شريف سعيد في بناء الهيكل العام لفلمه على لائحة تتضمن عشر خطوات كفيلة بالتأثير على المتلقين، وتشويش رؤيتهم في أضعف الأحوال.

النغمة السائدة

يؤكد الدكتور صفوت العالم على ضرورة استباق الأحداث بغية امتلاك زمام المبادرة والقول بأن "مصر ليست تونس، وأن الرئيس حسني مبارك، ليس زين العابدين بن علي"، وهذا يعني بحسب الخبير الإعلامي ياسر عبد العزيز "أن التجربة التونسية فارقة ومحدودة، وليست لها تداعيات على بقية الأنظمة العربية، وخاصة على النظام المصري". يسجل هذا الفلم الموقف الشجاع لمقدم برنامج "مصر النهارده" محمود سعد حينما قاطع زميلته منى الشرقاوي طالباً منها أن يحيي الشعب التونسي على ثورته لأن التلفزيون الرسمي المصري لم يذع خبراً واحداً عنها، وقال:" إننا نعيش لحظة عربية تاريخية لا يمكن أن نعيشها مرة ثانية". ركّز ياسر عبد العزيز على أنس الفقي، وزير الإعلام السابق، الذي كان يعرف جيداً أن هذه المنظومة يجب أن تكون في خدمة الرئيس حسني

مبارك أولاً، ومشروع التوريث ثانياً، وهكذا ظلّ يغذي هذه القلعة الكبيرة "ماسبيرو"، أي مبنى التلفزين الرسمي، منذ بداية الأحداث حتى نهايتها.

تهويل العدو

إن تهويل صورة العدو الداخلي، وشيطنته، وربطة بعجلة التمويل الخارجي يُشعر عامة الناس بالخطر. وغالباً ما يستعمل إعلام الأنظمة الشمولية الأنماط الجامدة التي تربط أعمال الشغب والعنف بالأحزاب والجماعات المحظورة، والقوى الإرهابية للإمعان في تخويف الناس من جهة، وتشويه صورة المعارضين والمناوئين لهم من جهة أخرى. ركّز المخرج شريف سعيد في موضوع "التهويل" على شخصيتين إعلاميتين معروفتين وهما محمود سعد وتامر أمين اللذين كانا يقدمان برنامج "مصر النهارده" ليكشف لنا عن موقفيهما من أداء الإعلام الرسمي، فمحمود سعد لا يقبل بالتشويه، والابتزاز، وقد اتخذ موقفاً واضحاً لا لبس فيه، فهو مع الثوار قلباً وقالباً ولا يستطيع أن يمسك العصا من المنتصف. أما تامر أمين فهو يتعامل مع المعلومة التي تصل إليه بمنتهى الأمانة والموضوعية ولا يتحيز لجهة معينة على حساب جهة أخرى، لأنه شخص ناقل للأخبار والمعلومات، وليس جهة محرّضة.

أداة للكذب

يحاول المخرج شريف سعيد أن يعرّي ذهنية النظام الشمولي الذي لا يتورع عن الكذب الصريح حينما يلجأ للتهويل تارة، وللتهوين تارة أخرى، ولكن هل تنطلي الأكاذيب الصريحة على الجماهير؟ يقول الصحفي إبراهيم السخاوي لقد حدث ما يشبه الكارثة في يوم ٢٦ يناير حيث بلغ عدد المتظاهرين عشرات الآلاف في القاهرة، بينما يخرج مانشيت "الأهرام" عن "احتجاجات واضطرابات في لبنان". هذا هو التهوين الذي يمارسه الإعلام الرسمي مستخفاً بعقول المواطنين. يذكر عبد الله كمال، رئيس صحيفة روز اليوسف، ونائب في مجلس الشورى بأن عدد المتظاهرين أمام دار القضاء العالي هو "٢٠٠"

شخص فقط وكأنه لا يسمع هتافات المتظاهرين وغضبهم في محاولة يائسة لتقليل العدد بغية التمويه على الجماهير. تؤكد سها النقاش، المذيعة بقناة النيل للأخبار، بأنها لن تنسى الجملة التي كانت ترددها دائماً "عاد الهدوء إلى شوارع القاهرة" وهي تدرك جيداً أن هذه الشوارع تموج بمئات الآلاف من المتظاهرين، فلا غرابة أن تشعر بالغصّة لأنها تحولت إلى أداة للكذب على المواطنين. عشرات من قصص التهويل والتهوين، فالمئات من المتظاهرين ممكن أن يصبحوا آلافاً مؤلفة والعكس صحيح، وقد وصل الاستخفاف بالناس أن كاميرات الإعلام الرسمي لم ترَ من المليون متظاهر في ميدان التحرير إلا "٤٠٠" مواطناً، بينما "كانت ترى السمك في نهر النيل يتراقص ويكاد يهتف تأييداً لمبارك"!

إثارة الذعر

تعمد السلطة المستبدة إلى ترويع الناس وإثارة فزعهم بمختلف الوسائل الممكنة من بينها الترويج لوجود أناس لهجتهم غير مصرية أو أجانب يتحدثون الإنكليزية أو عناصر شغب يحملون كرات نارية وهم في طريقهم إلى ميدان التحرير. كما يلجأ الإعلام إلى المبالغة في إظهار الإنفلات الأمني وتصوير أعمال السلب والنهب والاغتصاب وتخريب الممتلكات العامة، وقد عزز المخرج هذه الأعمال الترويعية المفزعة بالأدلة البصرية مثل تحطيم مترو الأنفاق، وسرقة المتحف المصري، وتعطيل البنوك لكي يوحوا للناس بأن مصر قد غرقت في الفوضى، وأن البلطجية قد بسطوا نفوذهم على أزقة القاهرة وشوارعها في رسالة واضحة يقولون فيها إما نحن أو هذه الفوضى العارمة التي ترونها أمامكم. لا يقتصر الترويع على الجانب الأمني فقط، وإنما يتعداه إلى بث المخاوف الاقتصادية عن إفلاس مصر، وغياب السلع الإستراتيجية وما إلى ذلك من مصائب ومحن تنتظر المصريين جميعاً.

سياسة التشويه

تشير الخطوة الخامسة من اللائحة إلى ضرورة التشتيت والتشويه مثل ضرب الثوار، ودهسهم، وتفريقهم لكسب بعض الوقت، واستعمال سيناريوهات متناقضة من قبيل إصلاح النظام وليس إسقاطه، كما طرح الكاتب عماد الدين أديب وقال بأن الرئيس استجاب لمطالبنا، فلنعطه الفرصة لإكمال دورته الرئاسية، ولنتعامل معه بكرم الأخلاق، ولم يجد حرجاً في التصريح "بأنه يحب الرئيس محمد حسني مبارك ويعتبر نظامه وطنياً يحافظ على استقرار مصر، وقد أثبتت التجارب بأنه ليس عميلاً، ويجب المحافظة عليه". وتحدث عن وجوب مسلحين أجانب وعرباً في ميدان التحرير ويحوزتهم أجهزة اتصالات في دعوة تحريضية واضحة لنسف مكان التظاهر. وقد أظهر الفلم عدداً من الأدلة البصرية التي تؤكد هذه المزاعم من بينها القبض على المهندس الإسرائيلي تومار خولال في السويس من قبل وحدات الجيش الثالث، وإظهار بعض الوجوه الأجنبية التي تتجول بين المتظاهرين. وعزز هذا الكلام الإعلامي طارق حسن، رئيس تحرير الأهرام المسائي الذي قال بأن شباب الثورة يرددون نفس الكلام الذي تردده أميركا وفرنسا وبريطانيا وتركيا وإسرائيل، ورأى بأن هذه ليست مصادفة، وإنما هناك جهات أجنبية تتربص بمصر.

الراوي الوحيد

لا يريد إعلام السلطة المستبدة قصصاً مختلفة، ولا يحبذ وجود رواة آخرين ينقلون الجانب الآخر من أي خبر أو حادثة فلا غرابة أن يشيطنوا كل وسائل الإعلام الأخرى التي يعتبرونها مناوئة لهم مثل "الجزيرة" و "العربية" و "الحرة" وغيرها من القنوات "المأجورة" التي ألصقت بها تهماً عديدة على رأسها الارتباط بأجندات أجنبية، وقد كانت هذه التهم الجاهزة ذريعة لإغلاق هذه القنوات، وقطع اتصالاتها، ومصادرة معدّاتها الفنية، والاعتداء على مراسليها بالضرب المبرح من قبل البلطجية والعناصر الأمنية، الأمر الذي دفع الموظفين في هذه القنوات إلى الهروب من مكاتبهم ومحاولة البث من مناطق أخرى بواسطة البث المباشر. يشعر الموسيقي عمّار الشريعي بأنه يُعامل معاملة "السائمة والأنعام" حينما يقطعون عنه النت الذي يشبه الماء والهواء. يقول الخبير الإعلامي ياسر عبد العزيز بأن "٢٥" مليون مصري يستعملون الإنترنيت، و"٨" ملايين يستعملون الفيس بوكو "٢" يستعملون التوتير، وهؤلاء جميعاً لا يمكن أن يكون مصدرهم الوحيد الإعلام

الرسمي فقط، لأنهم يتوقون إلى سماع أقنية إعلامية متنوعة ترضي فضولهم المعرفي، وتزودهم دائماً بالجانب الآخر من الحكاية. وعلى الرغم من كل القيود التي فرضها نظام حسني مبارك إلاّ أن الأجهزة التقنية الصغيرة مثل الموبايل استطاع في خاتمة المطاف أن يهزم قلعة ماسبيرو العتيدة.

الخطاب العاطفي

روّج الإعلام الرسمي لفكرة الخطاب العاطفي بحجة أن حسني مبارك يعتز بما قضاه من سنين طويلة في خدمة مصر وشعبها. فهو الذي حارب من أجل من الوطن وسيادته، وسوف يموت على أرضه. كما طالبهم هذا الإعلام باحترام الكبير وتوقيره، خصوصاً إذا كان هذا الكبير بطلاً من أبطال حرب أكتوبر. لقد استغل الإعلام الرسمي طيبة الشعب المصري فخرجوا بالملايين تأييداً له بعد خطاب ٣ فبراير، فهذه المرأة تقول له "أنت أبونا"، وذاك "يضرب له في البيت تعظيم سلام"، ورجل دين يذكِّر المتظاهرين الشباب تحديداً بأنهم " كانوا في أرحام أمهاتهم ومبارك يحرِّر لهم وطنهم"، وامرأة أخرى تشكره ألف مرة لأنه قال "بأنه سيموت في بلده". لقد لاقى هذا الخطاب بعض التعاطف من قبل الأغلبية الصامتة التي لم تجد حرجاً في أن يقضي الرئيس الأشهر الستة المتبقية من مدة حكمه بعد أن أجرى عدداً من التعديلات الدستورية الطفيفة وأعلن عن عدم نيته للترشح لدورة رئاسية قادمة، أما الجانب الآخر من القصه فهناك الملايين أيضاً الذين يرون فيه كذاباً متمرساً لا يفي بالوعود التي يقطعها على نفسه.

أكاذيب مُختلَقة

اختلق إعلام مبارك العديد من القصص المفبركة ولعل من المفيد أن نتوقف عند قصة الصحفية نجاة عبد الرحمن التي ظهرت كناشطة ورفضت أن تذكر اسمها وادعت بأنها تلقت تدريبها المكثف مع شباب الإخوان على أيدي إسرائيليين في أميركا وقطر بهدف قلب نظام الحكم المصري، ثم تبين لاحقاً من خلال الكاتب بلال فضل بأن الإعلامية المذكورة معروفة بفبركتها الدائمة للتحقيقات الصحفية وقد تمّ محاكمتها على الأساس.

كما استمعنا إلى قصة "تامر" الذي بدا منهاراً ومختنقاً يناشد المصريين الحقيقيين من خلال التلفزيون أن يتدخلوا قبل فوات الأوان بعدما رأى الأهوال في ميدان التحرير. وقد انقسمت الآراء بضرورة الاستماع إلى "تامر" واستقاء المعلومة المفيدة منه، وبين اقفال الخط والتعامل معه بمهنية عالية لأن وقت الجمهور ليس رخيصاً إلى هذا الحد في ظل الظروف الاستثنائية التي تمر بها البلاد.

آراء المشاهير

يحظى هذا الجزء من الفلم باهتمام كبير من قبل المشاهدين الذين قد يندهشوا وهم يستمعون إلى آراء عدد غير قليل من الفنانين المصريين وبعض نجوم الرياضة ورجال الدين وهم يساندون بقوة التوجهات القمعية لنظام حسني مبارك مُضللين جمهورهم بعدد من الأكاذيب الصارخة التي يحاسب عليها القانون. فالفنان محمد صبحي يريد أن تظل صورة مبارك في مكتبه الشخصي، وصابرين تطالب المتظاهرين بتوقير الكبير مبارك، ومحمد فؤاد يستكثر على الرئيس الموقف المزري الذي هو فيه، والملحن عمرو مصطفى يرى أن "بتوع التحرير سوف يضيّعون البلد"، وعفاف شعيب تعتقد أن مبارك سيفوز بنسبة ٩٠% لو أجري استفتاءً نزيهاً، فيما يذهب محمد رياض إلى أن "المتظاهرين لهم أجندات خاصة". اللافت للنظر في أحاديث بعض الفنانين والرياضيين هو النبرة السادية التي تطالب بمحاصرة المتظاهرين وإحراقهم كما قالت الفنانة سماح أنور "مفيش مشكلة أنه حد يولّع فيهم"، وطالب الكابتن إبراهيم حسن بضرب طوق أمني حولهم، ومنع الدواء والأكل والماء عنهم إلى أن يعتذروا ويغادروا المكان. وإذا كانت منى زكي تعتقد بأن هناك بعض المندسين بين المتظاهرين فإن هناك من كال التهم الخطيرة لهم، إذ قال بأن هناك "مخدرات وعلاقات جنسية كاملة" هذا إضافة إلى اتهامهم بالحصول على النقود ووجبات أكل وصفت غير مرة بـ "الكنتاكي"، أما الفنانة آثار الحكيم فانتقدت المتظاهرين الشباب الذين يجلسون مع صديقاتهم أو الذين يتناولون الطعام مع زوجاتهم وأولادهم! الفنان حسن يوسف الذي أمضى ثلثي حياته بطلاً للأفلام الرومانسية الجميلة طالب المتظاهرين بالصلاة واحترام الصغير، وتوقير الكبير، ورفع اللافتات قليلة الأدب التي تتضمن كلاماً بذيئاً عن الرئيس مبارك. كما طلب رجل الدين علي جمعة من المتظاهرين أن ينسحبوا،

ويدعوا الشرعية تعمل لأن الخروج عليها حرام. أما الداعية خالد الجندي فقد ركز على الأجندات الخاصة. هؤلاء جميعاً، فنانين ورياضيين ورجال دين، بحسب الإعلامي محمود سعد قد ساهموا في تشويه صورة الثورة والإساءة لها، كما أنهم كذبواعلى الناس وضللوهم، ولم يقدموا لهم معلومات حقيقية، ولكنه خلص إلى القول بأن شريحة محددة من هؤلاء الناس لن تغيّر مجرى الأحداث الراهنة.

تغيير الجلود

رحل مبارك، وحوكمت زمرته الضالة بما فيهم أنس الفقي وأسامة الشيخ، ولكن المنهج لم يتغير، إذ تحول جزء غير قليل من الجهاز الإعلامي الرسمي إلى الطرف الآخر مباشرة وبدأوا بالتملق للثورة والثوار وهم يتصورون بأنهم طووا صفحة نفاقهم العلني للنظام السابق. نشرت صحيفة الأهرام يوم ١٢ فبراير مانشيتاً كبيراً يقول: "الشعب يسقط النظام" وكأنها تعتذر لهذا الشعب على مؤازرتها النظام الشمولي السابق لمدة ثلاثين عاماً، وها هي الآن تعود إلى الشعب، ولن تعود إلى النظام مرة أخرى كما ذهب الصحفي إبراهيم السخاوي. السؤال الذي تثيره النقطة العاشرة من اللائحة هو: هل ظل الإعلام الرسمي المصري بلا حادي بعد سقوط رأس النظام، أم أن هناك عرّابين آخرين سوف يقودون هذه الماكنة الخطيرة ويندفعون بها إلى أمام؟ يرى الكاتب وائل عبد الفتاح بأن الجهاز الإعلامي وجد الأب البديل في المجلس العسكري، وهذا الخلل الكبير في البحث عن الأبوة لن يتغير، من وجهة نظره، ما لم تتغير مِلكية الإعلام الرسمي وتركيبته. الإعلامي تامر أمين يطلب من مشاهديه أن يتذكروا مواقفه الجيدة ويعتذر عن أخطائه سلفاً، أما حافظ الميرازي فلا يقبل باعتذار الصحفي لأن شرفه مثل عود الكبريت. لا يريد الإعلامي محمود سعد أن يتحدث عن أداء الإعلام المصري إبان ثورة يناير لأنه لو تحدث فسوف يقول كلاماً يعاقب عليه القانون. أما الخبير الإعلامي ياسر عبد العزيز فيرى أن الجهاز الإعلامي الرسمي قد ارتكب جرائم إعلامية مكتملة الأركان. يا ترى، هل كان المتظاهرون على حق حينما رفعوا لافتات تطالب بتطهير الإعلام الذي لم يسقط مع سقوط النظام السياسي، لأنه نجح في تبديل مواقعه وتعامل مع الواقع الجديد بأقنعة جديدة تضم غالبية الوجوه القديمة؟

لابد من الاعتراف بأن أغنية "قلّة مندّسة" كلمات ولحن ياسر المناوهلي تكاد تغطي موضوع الفلم وفكرته الرئيسية في طريقة استنكارها لأداء الإعلام الرسمي المصري الذي تعاطى مع أحداث ثورة يناير، وماسبيرو، ومجلس الوزراء وما إلى ذلك. وقد وصف إسفاف هذا الإعلام في العديد من المواقف، وطالب في خاتمة المطاف بتطهيره من كل الأدران التي حملها خلال سنوات الحكم الاستبدادي السابق.

نخلص إلى القول إن فلم "صناعة الكذب" للمخرج شريف سعيد هو من الأفلام المهمة التي ارتقت إلى مستوى الوثيقة فعلاً لأنها تعاملت مع الحدث بمهنية عالية حيث تم الاعتماد على مواد أرشيفية كثيرة مثل الصحف وساعات طويلة من البث التلفزيوني للقنوات الرسمية للدولة ونظيراتها من القنوات الأخرى التي تدور في فلك النظام السابق الذي استطاع أن يهيمن على هذه الماكنة الإعلامية الخطيرة التي ساهمت في ترويع الشعب وتضليله خلال أيام الثورة الممتدة من ٢٥ يناير وحتى ١١ من فبراير، وهو اليوم سقط فيه رأس النظام وبعض أركان حلقته الضيقة، لكن مؤسسته الإعلامية العتيدة بدّلت جلدها حينما شعرت بالخطر الجدي للتغيير فظهرت بوجوه مختلفة، وأقنعة جديدة لا تجد حرجاً في التملق إلى الثوار الذين تسنموا سدة السلطة. إن ما يثير الإغراء في هذا الفلم الوثائقي المحكم بناءً ورؤية ومضموناً هو هذا الكم الكبير من الكتّاب المثيرين للجدل، والشخصيات الإعلامية المهمة، إضافة إلى عدد غير قليل من النجوم السينمائية والتلفازية التي أربكت توقعات الجمهور، وأحبطتهم إلى حد ما، مثل محمد صبحي، عفاف شعيب، آثار الحكيم، سماح أنور، صابرين، محمد فؤاد، زينة، محمد رياض، منى زكي، طلعت زكريا، مي كسّاب، آثار الحكيم، حسن يوسف وآخرين. كما أن بعض رجال الدين لم يكن بعيداً عن هذه التبعية المذّلة للنظام مثل الشيخ علي جمعة والداعية خالد الجندي اللذين طالبا بتفريق المتظاهرين وترك الشرعية تعمل على حد قولهما. وفيما يتعلّق بالأدلة البصرية فقد كان المخرج دقيقاً وموضوعياً يقارع الدليل بالدليل والحجة بالحجة وقد أنجز في نهاية المطاف فلماً وثائقياً تفخر "الجزيرة" بأنها أنتجته وقدّمتها لجمهورها الكريم الذي يحرص على متابعة "وثائقياتها" التي تتوفر على عناصر الإثارة والتشويق والفائدة في آنٍ معاً.